الباب الثاني
حرستا عبر التاريخ

الفصل الأول: حرستا في كتب التاريخ.

الفصل الثاني: الغساسنة العرب.

الفصل الثالث: إسلام الحرستانيين.

الفصل الرابع: الحروب وعوامل الخراب في حرستا.

الفصل الخامس: كوارث طبيعية.

الفصل السادس: الحكم العثماني.

الفصل السابع: الفرنسيون والثورة السورية.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
حرستا في كتب التاريخ

كثرت في المكتبة العربية الكتب التي تشبه الخطط، أي التي قامت بوصف الأمكنة والبقاع والمدن والقرى، فكان لبلدة حرستا حظٌ وافرٌ في ثنايا تلك الكتب، ولكن ما جاء عنها كان بالعرض السريع الذي لا يفي بالغرض المطلوب. وما جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي، وتاريخ دمشق لابن عساكر يقرّبنا إلى بعض النبذ التاريخية التي يمكن أن نرسم حولها تاريخ بلدتنا، بالإضافة إلى كتب أخرى اعتنت بدمشق ووصف بلاد الغوطة فكان لحرستا نصيب وافر في وصف رياضها، وغياضها، وأنهارها، وأثمارها التي تحفّ بطرقها الآخذة بمجامع القلوب.

ولنذكر بعض ما ذكره المؤرخين عن بلدة حرستا:

قال عنها ياقوت الحموي: «حرستا بالتحريك وسكون السين وتاء فوقها نقطتان، وهي قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص، بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ»[1].

وقال عنها ابن طولون الصالحي الدمشقي في رسالته: «وهي قرية كبيرة جامعة وفي أقطاع النيابة كانت، والآن صارت وقف التكية»[2]. وقد دعاها حرستا الزيتون.

وقال عنها الشيخ أبو المحاسن الحلبي: «كانت قديماً قرية حديث وشربها من نهر يزيد، وثورا، وإليها يُنسب التفاح النبطي، وقع بها حديث كثير خرَّجت لها جزئين، وخرج منها جماعة من أهل العلم»[3].

---

(1) معجم البلدان: (2/ 241).

(2) ضرب الحوطة على جميع الغوطة، ص 156. نشرها محمد أسعد طلس.
ووقف التكية: لعله يقصد تكية السلطان سليمان القانوني بدمشق.

(3) ضرب الحوطة على جميع الغوطة، ابن طولون: ص 156.

وقال عنها أحمد وصفي زكريا: «حرستا من كبريات قرى الغوطة، ومن أعمرها، وأجلها، وأغناها، وهي وسط سهل فسيح يكثر فيه شجر الزيتون، ولأجل هذا كان اسمها القديم حرستا الزيتون، وتكثر في حرستا الطرق الصوفية، كالشاذلية، والرفاعية، والنقشبندية وأمثالها»[1].

(1) الريف السوري، محافظة دمشق، أحمد وصفي زكريا: (1/ 273 ـ 274).

obeikandl.com

الفصل الثاني
الغساسنة العرب

حرستا بلدة قديمة قدم الواحة، وقد كانت عامرة منذ القديم. وكثير من المؤرخين من يجعل مكان جلق التي كانت مركزاً للغساسنة في نفس المكان الذي تقوم فيه حرستا اليوم[1].

ويرجع نسب بني غسان إلى قبيلة من عرب الجنوب، كان يرأسها فيما مضى عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء، وقيل أنه هجر اليمن في أواخر القرن الثالث للميلاد عند انفجار سد مأرب[2] واستوطن الأرض التي في جنوب دمشق بحوران. وأمَّا مؤسس دولتهم فجفنة بن عمرو، ونزحت هذه القبيلة من اليمن فاحتلت الأرض التي كان بنو سليح قد سبقوهم إليها وشيَّدوا فيها أول وأعظم ملك للعرب في الشام.

وكرت الأعوام فإذا غسان قد اصطبغت بالصبغة السورية، واتخذت الآرامية لغة لها إلاَّ أنها لم تهجر لسانها العربي الأصيل، بل إن أبناءها أصبحوا كغيرهم من قبائل العرب في الهلال الخصيب مزدوجي اللغة، ولم يكن لهم في مطلع عهدهم عاصمة إلاَّ مخيم واحد ينتقلون به من أرض إلى أرض وكانوا كلما قصدوا دمشق يقيمون مرابعهم وبيوت شعرهم على الروابي المطلَّة على جلق التي ترتفع عن دمشق 100م، وحرستا ترتفع عن سطح البحر 750م وأما دمشق فترتفع عن سطح البحر أيضاً 650م.

وجلق اسم لكورة الغوطة كلها، وقيل: بل هي دمشق نفسها، وقيل جلق موضع بقرية من قرى دمشق، أو صورة امرأة يجري الماء من فيها في قرية من قرى دمشق[3].

وقال أحمد أمين: أنَّ جلَّق عاصمة الغساسنة قريبة من دمشق على أنها العاصمة[4]. ويُعدُّ الحارث بن جَبلة أشهر ملوك بني غسان، والذي لم يطل حكمه أكثر

---

(1) حرستا بلد الزيتون، رسالة جامعية: محمود شاكر، (ص: 33).

(2) سد مأرب: هو بين حضرموت وصنعاء من بلاد الأزد باليمن، وهو من بناء سبأ بن يَشجُب بن يعرب. معجم البلدان: (5/ 34).

(3) معجم البلدان: (2/ 154).

(4) فجر الإسلام: (ص: 18).

من عشر سنين. ولم يكن للغساسنة عاصمة معينة بل كانوا ينزلون الجابية في دمشق وجلق.

وفي سنة 528م تغلّب الحارث على المنذر ملك الحيرة فأصبحت المنافسة بينه وبين المناذرة على أتمها بسبب أراضي التخوم الواقعة بين دمشق وتدمر إلى الرصافة، وكان كل واحد منهما يدعيها.

ولمّا سقطت دمشق والقدس في يد ملك الفرس كسرى ابرويز سنة 613م انهارت مملكة الغساسنة وكان جبلة بن الأيهم[1] آخر ملوكهم[2].

وقد قام الحارث بن جبلة الغساني الثاني ببناء قصر في حرستا شرقي منطقة الكوع وكان يسمى قصر الحارث الغساني، وهذا ما كان يتداوله أهل حرستا عبر القرون.

ولقد زار جلق أيام الغساسنة النابغة الذبياني، والأعشى، والمرقّش الأكبر وعلقمة الفحل، وفيهم يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

للـــه در عصابـــة نـــاد متـــهم يومـــاً بجلـــق فـــي الزمـــان الأول

---

(1) جبلة بن الأيهم: هو آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام، قاتل المسلمين في دومة الجندل سنة 12هـ أسلم وهاجر إلى المدينة وارتدّ فيها، وخرج إلى بلاد الروم، فمات في القسطنطينية الأعلام، خير الدين الزركلي: (2/ 111 ـ 112).

(2) خطط الشام، محمد كرد علي: (1/ 66)، مروج الذهب، المسعودي: (2/ 113).

الفصل الثالث
إســـلام الحرستانيين

كانت بلاد الشام مجاورة للحجاز، وهي التي فكَّر الرسول صلى الله عليه وسلم في فتحها إذ كانت تحت حكم الرومان منذ ستة قرون. وكان سكان هذه البلاد من عرب وفرس وروم أصحاب علاقات تجارية مع الحجاز.

وفي عام 13هـ جاء الصحابي الجليل خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق إلى الشام ومعه أربعة قواد كبار وهم (عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة). ولما بلغ خالد بن الوليد الثنية التي تُشرف على الغوطة نشر رايته التي تسمى (العقاب) فسميت تلك الثنية منذ ذلك الوقت (ثنية العقاب)[1]، ثم سار باتجاه دمشق، ففتح دومة وحرستا ولم يحدث أي قتال، فجيش خالد بن الوليد يُقدَّر بآلاف المقاتلين فلا يعقل أن يحدث حرب بينه وبين أهل تلك القريتين المذكورتين اللتين تتألفان من بضع عائلات.

ثم جاء أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فعاهد نصارى بلدة دومة على أن يترك لهم كنيستهم، ويسمح لهم بممارسة عباداتهم، بشرط أن يرشدوا الضَّال، ويبنوا القناطر على الأنهار من أموالهم، وأن يستضيفوا من مرَّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام ويطعموهم مما يأكلون.

ولكن تعصب الدوميين المسلمين ضايق بعض العائلات المسيحية مما اضطرَّ هؤلاء بالهجرة من دومة إلى حرستا واستوطنوا فيها، ولهذا فإن أغلب العائلات الحرستية من أصل دومي[2].

---

(1) ثنية العُقَابُ: العقاب، الصخرة العظيمة، وهي فرجة في الجبل الذي يطلّ على غوطة دمشق من ناحية حمص. (معجم البلدان: 4/ 133).

(2) تاريخ دومة: معروف زريق، ص 32.

العهد الأموي:

بويع معاوية رضي الله عنه بالخلافة، فاختار دمشق عاصمة له، ونزل جيش المسلمين ضارباً خيامه خارج أسوار دمشق. وكان أمراء بني أمية ينتقلون إلى البوادي الفسيحة خلال أيام الربيع من كل عام، فيعيشون عيشة أمراء البدو في المضارب. وقد قام سليمان بن عبد الملك ببناء كثير من القصور والمنازل، وقيل بأن منطقة (النفلة) في حرستا كانت منتزهاً له في فصل الربيع.

وفي عهد يزيد بن معاوية تم شق قناة جديدة لا تزال تحمل اسمه ليومنا هذا وهو نهر يزيد، حيث قام بتوسيع المنطقة المزروعة بإحياء أراضي حرستا الشمالية والغربية والنظر في توزيع حقوق المياه في الواحة كلها، كما ساعدت هذه القناة على امتداد الخضرة والعمران إلى الأجزاء المرتفعة من سفح قاسيون، وإرواء المنازل والمزارع[1]. فسعدت حرستا أيام الأمويين بشق هذا النهر الذي روَّى أراضيها وناهيك عن دخول الماء إلى بيوت البلدة وحمامها بواسطة السواقي.

---

(1) مدينة دمشق، دراسة في جغرافية المدن: د. صفوح خير (ص 160).

obeikandl.com

الفصل الرابع
الحروب وعوامل الخراب في حرستا

كانت الأوبئة والمجاعات والزلازل من أهم عوامل الخراب، وأشدّ منها وأنكى جور الإنسان على الإنسان. وكان من أهم أدوات الدمار نحو ألف سنة قتل الأنفس وخراب العامر. وكان التسلّط على الفلاحين بالظلم حتى تشرد كثير من أهل الزراعة. وعندما اشتد ظلم المماليك على العثمانيين اختلّ الأمن ورخصت قيم الأرواح في البر فأصبح الناس لا يسيرون في الحقول والمزارع إلاّ مجتمعين.

1 ـ سنة 126هـ دخل يزيد بن الوليد بن عبد الملك دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سراً، وبايع أهل (المزة)[1]، وكان على دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج، فخاف الوباء فخرج منها فنزل (قطنا)[2]، واستخلف ابنه على دمشق، وعلى شرطته أبو العاج كثير بن عبدالله السُّلَميّ، فأجمع يزيد على الظهور، فقيل للعامل: إنَّ يزيد خارجٌ، فلم يصدّق. وأرسل يزيد أصحابه بعد المغرب ليلة الجمعة، فكمنوا عند (باب الفراديس)[3] حتى أذَّن العشاء، فدخلوا فصلوا، وللمسجد حرس قد وُكلوا بإخراج الناس منه بالليل، فلما صلى الناس أخرجهم الحرس، وتباطأ أصحاب يزيد حتى لم يبق في المسجد غير الحرس وأصحاب يزيد، وكان بالمسجد سلاح كثير. وفي الصباح جاء أهل المزة، وتتابع الناس، وأقبل أهل (داريا)[4] ويعقوب بن محمد بن هانئ العبسي، وأقبل عيسى بن شبيب التغلبي في أهل (دومة)[5] و(حرستا)، وأقبل حُميد

---

(1) المزَّة: كانت قرية كبيرة غنَّاء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ، والآن أصبحت من أحياء دمشق.

(2) قطنا: من قرى دمشق، في سفح الحرمون.

(3) باب الفراديس: موضع بقرب دمشق وهو أحد أبوابها.

(4) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة.

(5) دومة: وهي أكبر قرى الغوطة وتقع شرقي بلدة حرستا.

ابن حبيب النَّخَعيّ في أهل (دير مران)[1] و(الأرزة)[2] و(سطرا)[3]، ثم وجه يزيد بن الوليد بن عبد الملك عبد الرحمن بن مَصاد في مائتي فارس ليأخذوا عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف من قصره، فأخذوه بأمان وأصاب عبد الرحمن خرجَيْن في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار[4].

2 ـ سنة 127هـ ولي يزيد بن خالد القسري[5] على الغوطة فأرسل عليهم مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين أبا الورد بن الكوثر فاستباح عسكرهم وأحرقوا حرستا والمِزَّة.

3 ـ في سنة 176هـ ثارت الفتنة بين القيسية واليمنية وعلى رأس القيسية زعيمهم أبو الهِيذام، وعامر بن عمارة وكان فارس زمانه ومن فصحاء العرب، واختلف في سبب هذه الفِتنة، فقتل عامل الرشيد عليها أخا أبي الهيذام. فوجَّه أبو الهيذام حمدون السلمي فأحرق حرستا (وعربيل)[6] القريبة إليها.

4 ـ سنة 195هـ حدثت فتنة السفياني الملقب بأبي العميطر، لأنه حاول استرجاع الشام من العباسيين، حتى أصبحت حرستا ساحة قتال، ومات كثير من أهلها في هذه الفتنة.

5 ـ سنة 227هـ ثارت القيسية بدمشق وعلى رأسهم ابن بيهس الكلابي فعاثوا وأفسدوا وحصروا أميرهم. فبعث الواثق إليهم رجاء بن أيوب وكانوا معسكرين (بمرج راهط)[7]، فنزل (بدير مران) ودعاهم إلى الطاعة فلم يرجعوا، فواعدهم الحرب بدومة

---

(1) دير مُرَّان: دير قرب دمشق.

(2) الأرزة: قرية كانت في حي الشهداء في طريق الصالحية بدمشق. رأى خرابها ابن طولون وقد دثرت. ضرب الحوطة: ص 154.

(3) سطرا: من قرى دمشق أيضاً.

(4) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: (4/ 303).

(5) يزيد بن خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد القسري البجلي، كان مع أبيه في العراق، انتقل إلى غوطة دمشق بعد قتل أبيه، وصُلب يزيد على باب الفراديس بدمشق، وبعث برأسه إلى مروان بن محمد وهو يؤمئذٍ بحمص. (الكامل في التاريخ: 4/ 337)، (أمراء دمشق في الإسلام، ص 98).

(6) قرية تقع جنوب حرستا، ويقال لها: عربين وشربها من نهر ثورا.

(7) هو موضع بالغوطة، قُتل فيه الضحاك بن قيس. (معجم البلدان: 3/ 21).

وحرستا فهزمهم وقتل منهم نحواً من ألف وخمسمائة. والذين ثاروا هم أهل الغوطة والمرج، ومن قرى الغوطة الثائرة (كفر بطنا)[1] و(جسرين)[2] و(سقبا)[3] و(دومة) و(حرستا)، وأصيب من ذلك جماعة كثيرة.

6 ـ كانت بلاد الغوطة أوائل حكم العباسيين قد عاد إليها أمنها بعد الفتن التي تنشب حولها. فلما استولى الفاطميون على الشام واشتد ظلم عمال المستنصر الفاطمي على القرى القريبة إلى دمشق ومنها حرستا هان على أهلها مفارقة أملاكهم وزراعتهم بما عانوا من ظلمه وظلم عماله.

7 ـ سنة 357هـ وفيها توفي كافور الإخشيدي[4]، إذ جرت بين فنك بن عبدالله مولى كافور، وكان جهزه مولاه لأخذ دمشق ثانية، وبين أهلها مناوشة وقتال وإحراق ونهب، وبلغه خبر الروم وأخذهم حمص، فنادى في دمشق بالنفير إلى ثنية العقاب بسبب الروم فخرج الناس إلى دومة وحرستا، وانتهز الفرصة في خلو دمشق فرحل عنها وتوجه بأثقاله نحو عقبة (دُمَّر)[5] متوجهاً إلى الساحل، فنهب أهل دمشق بعض أثقاله وقتلوا من بقي من رجاله[6].

8 ـ سنة 363هـ جاء أصحاب ظالم بن موهوب الفاطمي إلى الغوطة، حتى جلا السكان عن القرى وقطعوا الطريق العام (السلطاني) بين دمشق وحرستا ودومة، ونهبوا الفلاحين وحصل قتال شديد.

---

(1) تبعد عن دمشق 6كم تقريباً وهي في صميم الغوطة تحيط بها الأشجار، وفي جنوبها يمر نهر بردى كانت تشتهر بزراعة (القنب). خرج منها الإمام الذهبي المحدِّث المشهور. (الريف السوري: 2/ 111).

(2) من قرى غوطة دمشق تبعد عن دمشق حوالي 7كم تقريباً.

(3) قرية في غوطة دمشق أيضاً.

(4) كافور الإخشيدي: أمير مشهور، صاحب المتنبي. كان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيدي ملك مصر (سنة 312هـ) فنسب إليه، وأعتقه فترقى عنده، حتى مَلَكَ مصر (سنة 355). توفي في القاهرة (دول الإسلام: 1/ 137)، (الأعلام: 5/ 216). (وفيات الأعيان: 1/ 431).

(5) مشرفة على الغوطة بينها وبين دمشق 7 كم تقريباً يجري فيها نهر بردى، ويوجد حولها جبال مرتفعة وكانت أراضيها منتزهات لأهل دمشق في أوائل القرن الماضي. (الريف السوري: 2/ 199).

(6) خطط الشام: (1/ 201).

9 ـ سنة 416هـ حاصر سنان بن عليان من أمراء العرب مدينة دمشق وجرت بينه وبين أهلها حرب شديدة حتى امتدت الحرب إلى قرية حرستا فهرب أهلها إلى الحقول.

10 ـ سنة 467هـ خرّبت دمشق أيام السلاجقة عندما سار إليها أتسز[1] وانتشر الفساد في القرى المحيطة بها فخربت حرستا وجلا السكان عنها، حتى عمَّ فساده الغوطة فخلت من فلاحيها، وغلت الأسعار، وعدمت الأقوات، وبيعت غِرَارةُ القمح إن وجدت بأكثر من عشرين ديناراً، ودخل الجنود إلى دور أهل القرى، واعتقلوا من وجوههم جماعة.

11 ـ سنة 497هـ حكم طُغْتكين[2] دمشق، فأعاد إلى الرعية كثيراً من أملاكهم التي اغتصبها منهم ولاة الجور، وجرت عليهم أحكام المقاسمة وأرجعها إلى خراجها القديم، وأحيا الأرض المعطَّلة، وباع ما كان منها شاغراً للناس ليعمروه، فعمرت عدة ضياع وأُجريت العيون، فحسنت دمشق وقراها، وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك في باطن دمشق وظاهرها.

12 ـ سنة 534هـ رأى صاحب دمشق شهاب الدين محمود أن دولة عماد الدين زنكي ستكون لها الغلبة على دولته فاعتضد بالفرنج على مال يحمل إليهم ليدفعوا عن دمشق عادية عماد الدين، فسار هذا طالباً للقاء الفرنج إن قربوا منه، ثم عاد إلى الغوطة ونزل (بعذراء)[3] فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة إلى حرستا التين ثم رحل متثاقلاً[4].

13 ـ سنة 596هـ كان الأفضل وأخوه الظاهر يحاصران دمشق، وقد أُحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق والحوانيت، وأُحرق النيرب وأبواب الطواحين وقطعت

---

(1) هو أتسز بن أوف الخوارزمي، انتزع دمشق من أيدي العبيديين، وهو أول من شرع في بناء قلعة دمشق، ولم يكملها لأن الملك تتش بن ألب أرسلان السلجوقي انتزع الملك منه وقتله. (البداية والنهاية: 12/ 140 ـ 184).

(2) طُغْتكين، سيف الإسلام، ابن أيوب بن شاذي، صاحب اليمن، الملقب بالملك العزيز وأخوه الناصر صلاح الدين. (الأعلام: 3/ 227).

(3) وتعرف بإسم (عَذْرا)، وهي قرية شرقي دومة، وفيها مقام حِجر بن عدي، وشربها من نهر ثورا. (ضرب الحوطة على جميع الغوطة، ص 159).

(4) ذيل تاريخ دمشق، حمزة بن القَلاَنسي (ص: 272)، مكتبة المتنبي، القاهرة.

الأنهار، وأُحرقت غلّة حرستا في بيادرها[1]، وحفر على دمشق خندق من أرض اللِّوان إلى أرض (يلدا)[2] شرقاً احترازاً من مهاجمة من بدمشق لهما.

14 ـ عندما كانت قرى دمشق تحت حكم الملك الكامل جاءت الحملة الصليبية السادسة عندها وقعت الفتنة بين الملكين الكامل والناصر قبالة باب الحديد وفي الميدان، وما بين ذلك والنصر فيه لأهل دمشق، ووقع النهب والحريق في باب توما، وأُحرقت الطواحين، ونهبت الدور، ووقع الجرح والقتل وخرَّبوا بعد أيام عدة قرى من الغوطة، وأخرجوا منها أهلها. وكانت القرى الأكثر تضرراً وخراباً تلك القريبة إلى دمشق.

15 ـ سنة 642هـ وصلت الخوارزمية إلى دمشق؛ وخرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب، فاشتد البلاء واحترقت منطقة العقيبة بدمشق والخوانيق، ودام الحصار حول دمشق خمسة أشهر، فهلك الكثير من الأهالي موتاً وجوعاً، وبيعت الأمتعة بالشيء اليسير، وأنتنت حرستا بالموتى على الطريق العام (السلطاني)، وعظم الخطب، وقطعت الخوارزمية على الناس الطرق وزحفوا إلى دمشق من كل ناحية.

16 ـ سنة 658هـ في هذه السنة علم الناصر يوسف قصد التتر حلب فبرز من دمشق إلى (برزة). وكثرت الأراجيف بدمشق بسبب التتر فهرب الدمشقيين متفرقين في البراري والجبال، وصادف ذلك أيام الشتاء وقوة البرد فمات كثير منهم، ونُهب آخرون.

ولمَّا وصل التتر إلى حرستا وأرادوا الدخول إليها وجدوا لها سوراً يحيط بها وله أربعة أبواب تغلق عند المساء خوفاً من العربان وقطاع الطرق، فلم يجد التتر سبيلاً للدخول إلاَّ (ثغرة)[3] تحت الأرض، فدخلوا منها وقاموا بقتل رجالها، ونهب خيراتها، وأخذوا ما وجدوا في بيوتها من الأمتعة والتحف الأثرية، وأخذوا معهم خيولها العربية، والماعز البلدي التي كانت حرستا تشتهر بتربيته، فهرب بعض من بقي من أهلها إلى الحقول وبقوا مدة طويلة دون قوت ولا مأوى. وقد خرِّبت بيوت البلدة واستبيح ما لم يصبه الحريق من

---

(1) خطط الشام، محمد كرد علي: (2/ 12).

(2) قرية كبيرة في منتصف الغوطة الغربية، يحدها من الشمال دمشق. (الريف السوري: 2/ 175).

(3) الثغرة: حي من أحياء البلدة القديمة، ويعرف (بالثغرة)، ولم يزل يحمل هذا الاسم منذ قدم التتر إلى بلادنا، وهذه الثغرة كانت كفتحة سرِّية للدخول إلى داخل البلدة وتغلق مساءً.

الأماكن، وأسروا بعض رجالها، وطرحوا النار في المنازل والمساجد، وكان يوماً عاصف الريح فعمَّ الحريق جميع أنحاء البلدة.

وبعد رحيل التتر خرج العربان ودخلوا البلدة وقاموا ينهبون ما بقي فيها من القوت والأمتعة، ولم يجدوا إلاَّ المواشي ترعى لوحدها في بساتين حرستا ودام ذلك إلى أن قَدم السلطان (سليم الأول)[1] برفقة أحد علماء دمشق[2]، فرأى الأبقار والخيول والأغنام قد تكاثرت وكثر عددها، ووجد الأعشاب قد تطاولت، فقام بتقسيم أراضي البلدة على الفلاحين من أهل حرستا.

17 ـ سنة 793هـ جاء نعير بن جبار أمير آل فضل ونهب ضياع دمشق، وكان نعير عاصياً على السلطان وهو من أنصار منطاش ملك بعلبك، وخرَّب غالب إقليم دمشق ونهب ضياعها وجميع قرى الغوطة ومنها حرستا، فلمَّا بلغ نائب دمشق مجيء نعير خرج إليه وأوقع معه واقعة قوية في قرية (الكسوة)[3] فانكسر نائب دمشق وقُتل من عسكره جماعة.

18 ـ سنة 922هـ وفيها عسكر السلطان سليم الأول بين (القابون)[4] وحرستا في عساكر عظيمة لم تَرَ العين مثلها، فنزل في منطقة غربي البلدة وقام ببناء جدار كبير كي يفصل جنوده عن أهالي حرستا والقابون حتى لا يفسدوا في البساتين، وينتشروا بين أهالي البلدتين، وسمِّيت المنطقة باسم أرض (الجدار). وما زال الحرستانيين يتداولون هذا الاسم إلى يومنا هذا. وفي هذه السنة وصل ملك الروم إلى المصطبة السلطانية بأرض برزة في عساكر عظيمة فجرى قتال كبير بينه وبين السلطان سليم.

---

(1) هو السلطان سليم ابن السلطان بايزيد العثماني (1470 ـ 1520م)، عمل على ضم سوريا ومصر والحجاز إلى دولته، واستمر حكمه تسع سنين، بنى كثيراً من المساجد، وامتاز بالحدَّة والنشاط، وكان شاعراً متصوفاً، وكان ينوي جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الدولة العثمانية، وكان يحب المطالعة في التواريخ وأخبار الملوك. (خطط الشام: 2/ 211 ـ 220).

(2) وهو أحد أفراد عائلة العاني الدمشقية.

(3) قرية كبيرة تقع جنوب دمشق وتبعد عنها حوالي 19 كيلومتر، يمر بها نهر الأعوج، وتشتهر بزراعة الثوم، وهو أشهر محصولاتها الشتوية، وكانت أول منزلة تنزلها القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. (الريف السوري: 2/ 463).

(4) بلدة تقع إلى شمال دمشق وغربي حرستا وشربها من نهر يزيد، وإليها ينسب الخيار الجيد. (ضرب الحوطة: ص 159).

وفيها أيضاً قام الأمير ناصر الدين بن الحنش أمير عربان حماه لَمَّا بلغه أن السلطان سليم أرسل طلائع عسكره إلى القابون، لقيهم ابن الحنش وحصل قتال كبير، وأطلق عليهم الماء من نهر يزيد وثورا حتى صار كل من دخل في تلك المياه بفرسه يوحل فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر السلطان سليم جماعة كثيرة.

ولَمَّا رأى السلطان سليم قبر العارف بالله الشيخ محيي الدين بن عربي[1] بنى له بناءً عجيباً بعد أن كان مزبلة وصرف من الأموال عليه ما شاء الله أن يصرف، ووقف عليه قرية (التل)[2]، و(منين)[3]، و(حرستا)، و(عذرا)، وقيسارية الحرير بدمشق وطاحون باب الفرج[4]. ومن ثم أصبحت حرستا من بعده وقف للتكية السليمانية نسبةً لولده السلطان سليمان القانوني.

19 ـ سنة 659هـ عُزل الأمير عز الدين الحموي عن نيابة الشام وعاتبه السلطان عتاباً كثيراً على أشياء صدرت منه، ثم عفا عنه وأمره بالمسير معه إلى مصر واستناب الشام الأمير سيف الدين غرلو العادلي، وخلع على المولى وعلى المعزول وحضر السلطان دار العدل وحضر عنده الوزير والقضاة والأمراء، وكان عادلاً كما سمي، ثم سافر السلطان نحو بلاد حلب فاجتاز على حرستا، ثم أقام بالبرية أياماً ثم عاد فنزل حمص[5].

20 ـ سنة 761هـ قدم القاضي بهاء الدين أبو البقاء بن طرابلس بمرسوم شريف أن يعود إلى دمشق إلى وظائفه المبقاة عليه، وقد كان ولده ولي الدين ينوب عنه فيها، فتلقاه الناس إلى أثناء الطريق، وبرز إليه القاضي تاج الدين إلى حرستا، وراح الناس إلى تهنئته إلى داره وفرحوا برجوعه إلى وطنه وعندها وقع مطر عظيم في أول شهر محرم، وثلج

---

(1) الشيخ محيي الدين بن عربي (560 ـ 638هـ): هو محيي الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي من أهل الأندلس، قبره في الصالحية بدمشق معروف ويُزار، طاف بلاد الشام، وتصوف وسلك طريق الفقه، وصنَّف كتباً كثيرة، ودخل بغداد وحدَّث بها. (القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: 2/ 537).

(2) و (3) قريتان من قرى ريف دمشق.

(4) ثمار المقاصد في ذكر المساجد، يوسف عبد الهادي: ص 234.

(5) البداية والنهاية، ابن كثير: (13/ 407).

شديد، فرويت البساتين التي كانت لها عن الماء عدة شهور، ولا يحصل لأحد من الناس سقي إلاَّ بكلفة عظيمة ومشقة، ومبلغ كثير، حتى كاد الناس يقتتلون عليه[1].

21 ـ سنة 791هـ اشترى (يلبغا)[2] منطقة الحدائق بحرستا، وكانت عساكره قد استراحت بها.

22 ـ سنة 1213هـ ضرب الجند الدالاتية جميع قرى دمشق ودخلوا حرستا وأكلوا غلاتها، وأحرقوا محاصيلها، وأخذوا دوابها. فصارت حرستا ساحة للقتل والسلب وخاصة لوقوعها على الطريق العام بين دمشق وحمص، فكثرت الفتن، وانتشرت الفوضى في جميع الأراضي، وبقي العسكر أكثر من يومين ينهبون خلالها ما في البلدة من مأكول فرحل أكثر أهلا عنها لما أوقع فيهم الجند من الضرر.

---

(1) البداية والنهاية: (14/ 307).

(2) هو يلبغا الناصر بن عبدالله اليحياوي، نائب الشام، وقد خرج إلى ظاهر دمشق، وعمل على خلع الملك الكامل شعبان، وتسلم دار السعادة، وأنشأ القيسارية ظاهر باب الفرج بدمشق. (البداية والنهاية: 14/ 250 ـ 268).

obeikandl.com

الفصل الخامس
كوارث طبيعية

السيول والأمطار:

من الكوارث المفجعة التي أصابت قرية حرستا في ليلة 27 تشرين الأول سنة 1937م إذ جاءت سيول عظيمة جارفة اجتاحت البلدة ومزارعها وهدمت دورها وأغرقت عدداً كبيراً من سكانها، وجرفت كل ما وقع في مجراها من الحيوانات والحبوب والآلات الزراعية، والأثاث والأدوات المنزلية، وغطّت بما حملته من الأتربة والحجارة جميع قنوات الري ومنابع الماء وآبار الشرب، والطرق والمسالك، وبقي كثير من أهل حرستا بلا مأوى.

وقع هذا كله على حين غِرة، وخلال مدة لم تتجاوز الأربع وعشرين ساعة، بدأ برعد وبرق وسحب مكفهرَّة متراكمة جادت ببرد كبير الحجم وأمطار غزيرة تحولت إلى سيول طاغية تهدر هدراً مخيفاً وتنحدر من الأودية الغربية والشمالية مارَّة بمنطقة «السَّعدية» و«العُوينة» في البلدة منحدرة من بلدة برزة حتى تدخل حارات حرستا وأزقتها حتى سمي الحي الذي يدخله السيل (حي السيل). وكانت المياه تعلو متراً ومترين وتفاجئ النائمين والغافلين فيهبّون للفرار وإذا بالمياه المتدفقة تصدّهم، ويتسلّقون النوافذ والسطوح والطواحين، فإذا بالجدران والسقوف تتداعى فوقهم، وإذا بالصراخ والعويل من كل حدب وصوب فيذهب من ذهب ويسلم من استطاع الوصول إلى معتصم. وقد نكبت يومئذٍ قرى القلمون كلها وحتى قرى ناحية (منين) وقرى ناحية (دومة)، وقد كانت النكبة مختلفة الوطأة في كل منها. فلم تخلو بلدة حرستا من خراب منازلها وموت بعض أهلها. ومتى ينتهي السيل يذهب الناس لكي يتفقدوا بعضهم وأهليهم ومواشيهم وأدوات منازلهم، فيجدون الفرش والأغطية معلَّقة برؤوس أشجار الزيتون.

ومن كثرة ما كان يصيب البلدة من الأضرار، قام جماعة ببناء سد حجري أمام السيل في أسفل أرض برزة وتحويل مجراه باتجاه الشمال الشرقي، حيث إنَّه يصب في نهاية أرض السعدية في منطقة «المقصبة» غربي البلدة. وفي منتصف «سعد الذابح»[1] سنة 1163هـ نزل الثلج يومان وليلتان بدمشق وضواحيها بلا انقطاع ولم يعقبه مطر، وبقي على سطوح المنازل وفي الأزقة أكثر من عشرين يوماً، حتى صار رطل الفحم بنصف قرش وبثلث[2].

وفي سنة 1170هـ هطلت أمطار كثيرة وأعقبها برد شديد وهواء يابس، حتى تجمدت المياه في البِرك، ويبست بعض الأشجار، واستمر ذلك أكثر من عشرين يوماً، فكانت في الطرقات كالصخور، ومات كثير من الحيوانات والكلاب والطيور، ومات أيضاً الكثير من الدجاج البيتي. وفي الحقول مات كثير من قطعان الغنم والماعز، وحتى الأطفال لم ينجو منهم إلاَّ القليل[3].

الزلازل:

تعرضت بلدة حرستا خلال تاريخها لكثير من الزلازل كانت واضحة المعالم، شديدة الوطأة. ففي سنة 1172هـ حدثت زلزلة خفيفة، وتبعتها ثانية ثم ثالثة زُلزلت منها دمشق زلزالاً شديداً، فهدم جدار المسجد الكبير وأماكن لا تحصى في البلدة، وكانت القتلى التي وجدت تحت الهدم لا تحصى عدداً. وقد زاد الخوف والبلاء، وهجر الناس بيوتهم وناموا في أزقة البلدة وشوارعها وفي المقبرة، ولم يسلم من الناس والدواب إلاَّ القليل.

أما الزلزال الذي حدث سنة 1173هـ كان من أشد الزلازل السابقة، فقد أدى إلى تخريب أكثر البيوت، وأهلك ما لا يحصى من البشر والمواشي، وقد مات فيه تحت الردم

---

(1) يقسمون في بلاد الشام خمسينية الشتاء، وهي الخمسون يوماً التي تتلو مربعانية الشتاء إلى أربعة سعود، كل منها مدتة اثنا عشر يوماً ونصف يوم، وهي: سعد الذابح، وسعد بلع، وسعد سعود، وسعد الخبايا. (حوادث دمشق اليومية، أحمد البديري: ص 192).

(2) و (3) حوادث دمشق اليومية، أحمد البديري: (ص، 192).

أناس كثيرون، وقد خرج الأهالي جميعاً بأموالهم وأنفسهم وعيالهم إلى خارج البلدة، ونصبوا الخيام وبقوا فيها مقدار ثلاثة أشهر.

الطاعون:

تعرضت بلدة حرستا خلال القرون الماضية لمرض الطاعون أكثر من مرة، وكان يستمر هذا المرض بين شهرين وأربعة أشهر، والناس يموتون في كل يوم بالمئات.

1 ـ طاعون سنة 656هـ كان يرتفع عدد الموتى كثيراً حتى لم يعد الحرستانيون يجدون مغسّلاً للموتى، وبقيت الزروع قائمة لا تجد من يحصدها، كما انتشر الغلاء والوباء، وقلَّ عدد السكان حيث أفناهم الوباء والغلاء والجلاء، وانقطعت الأمطار في بلاد الشام فأصبحت حرستا خالية من المزروعات[1].

2 ـ في سنة 1183هـ قويت وطأة الطاعون، وصار يخرج كل يوم العشرات من الجنائز، وأُصيبت حرستا بمجاعة شديدة، وحُمِّلت الأموات إلى المقبرة على السَّلالم الخشبيَّة من كثرة الوفيات.

الجراد:

عندما رحل تيمور عن دمشق سنة 815هـ، وكان قد خربَّها وأكثر فيها من القتل وتمزق الناس في أقطار الأرض، دهمها جراد فلم يترك بها خضراء، فاشتد الغلاء على أهل دمشق وغوطتها.

وفي سنة 1159هـ خيَّم الجراد على البلاد، فنزل في البساتين فأكل حتى لم يبق ولم يذر، فقام الناس بمكافحته وذلك بجمعه ودفنه.

وفي سنة 1160هـ كثرت بيوض الجراد، وما أن جاء فصل الربيع حتى بدأ يظهر شيئاً فشيئاً إلى أن ظهر مظهراً شنيعاً، وبدأ يزحف مثل النمل فيأكل الزرع ويتلف النبات،

---

(1) وقد حدث طاعون سنة 467هـ توفي فيه أناس كثيرون، وهبط عدد سكان حرستا بشكل ملحوظ. (غوطة دمشق، محمد كرد علي: ص 153).

فوقع الناس في كرب عظيم، فنبّه أسعد باشا[1] على الفلاحين عموماً بأن تجمعه وتأتي به، وقد فرض على الأراضي الخُمْسَ[2] كل أرض قنطارين، وأن يوضع في الآبار ويُردم التراب فوقه.

(1) (أسعد باشا العظم: 1113 ـ 1171هـ): أسعد بن اسماعيل بن إبراهيم العظم، صاحب القصر الأثري المعروف في دمشق منسوباً إليه ولد وعاش في دمشق، خدم الدولة العثمانية وجعلته والياً على دمشق. (الأعلام: 1/ 300).

(2) الأراضي نوعان: الأراضي العشر وهي التي يجنى منها العشر أي (10٪ من غلتها) وهي التي لا يبذل في زراعتها مال أو جهد كبير، والأراضي الخمس وهي التي يحتاج إرواؤها إلى جهد كاستخدام الروافع أو السدود ويجنى منها 5٪ فقط من غلتها.

obeikandl.com

الفصل السادس
الحكم العثماني

1 ـ التنظيم العمراني : ألزم الحكم العثماني أهل حرستا الأغنياء والجمَّالة بنقل الحجارة من الجبل إلى منطقة (الكوع) لبناء دور حكومي يحتوي على كل ما يحتاجه المواطن الحرستاني والتركي، ولكن هذا البناء لم يكمل فتحول إلى مدرسة ريفية في عهد الإستقلال. وكذلك فتحت تركيا الطريق العام بين دمشق وحرستا، وأسهمت في توسيعه، ووصل خط الترام الكهربائي بين دمشق وحرستا وصولاً إلى بلدة دومة.

2 ـ التنظيم العسكري : جنَّدت الدولة العثمانية جميع الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين 20 ـ 60 سنة، مما جعل حرستا خالية من الأيدي العاملة، فلم يبق فيها إلاَّ الأطفال الصغار والكبار المسنون الذين لا يستطيعون العمل، فتعرضت حرستا لمجاعة كبيرة وغلاء رهيب. وذكر أجدادنا أنهم لم يجدوا في البلدة من يأخذ القمح إلى الطاحون لقلة وجود الشباب.

وكانت الرتب العالية في الجيش وقفاً على الأتراك، أما غيرهم فيقفون عند حدود الرتب الصغيرة، وإذا طُلب أحد الحرستانيين للتجنيد الإجباري أقام أهله مأتماً لأن موته محقق في الحرب لضعف التدريب العسكري ونقص التموين.

3 ـ التنظيم الاستعماري : كانت الدولة العثمانية ترسل جنودها ليقضوا الشتاء في الغوطة، وكان طعامهم من الأهالي، لأن الدولة لا تعطيهم ما يكفيهم ويقوم بأودهم.

وكانوا إذا قضوا بضعة أشهر في هذه الضيافة الجبرية وأرادوا الرحيل فإنهم يطلبون (الترحيلة)[1] من الأهالي.

وفي سنة 1041هـ/ 1631م نهب الجنود العثمانيون جميع قرى الغوطة خلال إقامتهم الشتوية. وقد بلغت قمة العنف والسيطرة في سياسة التتريك التي اتبعتها الدولة العثمانية في إعدام كبار الأحرار، وقد أُعدم من حرستا سيف الدين الخطيب في بيروت[2].

---

(1) الترحيلة: هي مال يسلبونه من الأهالي ليستعينوا به على الرحيل.

(2) منتخبات التواريخ لدمشق، محمد أديب الحصني: (2/ 710).

كذلك أسهم الحكم العثماني بتنشئة الإقطاعية في بلادنا، وتغذيتها بأساليب مختلفة، نذكر منها:

آ - الإقطاع بواسطة السلاطين والولاة:

كانت الأراضي في العهد العثماني تُعتبر ملكاً للسلطان الحاكم، يوزع منها ما شاء على وزرائه، وعلى أمراء جنده، وعلى المقربين منه دون أن يستطيع أحد الإعتراض على إرادة الحاكم، حتى أن الطريق الذي يسير عليه الناس كان يُعتبر ملكاً للسلطان ولا يزال يسمى حتى الآن (الطريق السلطاني). ويذكر المسنون في بلدنا أنهم كانوا يدفعون (ضريبة الدربية) لقاء سيرهم على دروب البلدة، لأن هذه الدروب ملك للسلطان.

ب - الاستيلاء على الأرض لأهداف سياسية:

كان العثمانيون يهتمون بإيجاد طبقة متميزة من الناس، تساعده في الحكم، وتتمتع بنفوذ كبير، وإمكانات مادية ضخمة، وسلطة كبرى على الفلاحين. ولهذا كان الحاكم العثماني يوزع من أملاك الدولة ما يشاء من ملكيات مختلفة الإتساع، وكان هؤلاء الإقطاعيون عوناً للحاكم ودعماً لسلطته، ووسيلة لتنفيذ إرادته ومشيئته.

جـ - التمليك عن طريق الربا:

كان كثير من صغار الفلاحين في البلدة مضطراً للاستدانة من بعض المرابين بفائدة باهظة تصل أحياناً إلى 40 ـ 55 بالمئة. وكان الفلاح المستدين لا يستطيع أن يسدّد هذا الدين، فتنقلب عليه الفوائد المركبة مما يضطره إلى أن يبيع أرضه بعد سنوات قليلة من أجل تسديد الدين وما ترتب عليه من فوائد تصل في كثير من الأحيان إلى أرقام خيالية، أو أنَّ الفلاح يترك للمرابي الأرض ويبقى عنده أجيراً بعد ذلك.

د - التمليك نتيجة سوء اختيار متعهدي الضرائب:

كانت الدولة العثمانية تعهّد جباية الضرائب في الولايات العثمانية لكبار التجار، وكان هؤلاء التجار يقومون بجمع الضرائب من الناس أضعافاً مضاعفة مما تعهّدوه.

وقد أوشكت بلاد الغوطة الكبيرة أن تستغرقها الديون، حتى أراد أهل حرستا أن ينزلوا لغريمهم عن نصفها، ويبقى لهم النصف الآخر. فقد كان أهلها لا يجدون مناصاً

لدفع دينهم، ولا وسيلة لتقوية ضعفهم إلاَّ بالالتجاء لحمى أعيان المدن ومتنفِّذيها فيبيعون بعض أرضهم بأثمان بخسة، ومن هنا نرى أن مساحات كبيرة من أراضي حرستا أصبحت في أيدي بعض الأُسر الدمشقية، كأمثال عائلة (بوظو)، و(الدغلي)، و(الغزي)، و(المهايني)، و(الخياط)، و(العاني)، و(العظمة)، و(الحبال)، و(العقاد)، و(البازرباشي)، و(العبسي)، و(الأبرش).

فكانوا هؤلاء يشكلون ثلث أرض البلدة، والثلث الثاني لسكانها من العائلات الحرستانية الكبيرة كأمثال عائلة (شلة)، و(بكيرة)، و(محفوض)، و(شاكر)، و(حمزة)، و(جمعة)، و(زيتون)، و(البرهمجي)، و(حسون)، و(عفوف). والباقي لبعض العائلات الصغيرة.

أما الثلث الباقي فكان لعائلة محمد سعيد الباقوري الملقَّب بالباشا، فكانت هذه العائلة تملك ثلث أراضي حرستا وبرزة وكامل بلدة (الخيارة)[1]، وسبعة قرى تابعة لمدينة القنيطرة. وهذا الشخص ليس له أولاد سوى بنت واحدة تزوجها أحد أبناء عائلة اليوسف وأنجبت ثلاثة ذكور وهم: محمد سعيد الذي كان واضعاً يده على بلدة الخيارة، وعُيِّن محافظاً لمدينة دمشق وحسن بك اليوسف الذي كان واضعاً يده على بلدة حرستا وبرزة، وفؤاد الذي أشرف على ضواحي القنيطرة. ومن مخاوف الجدّ الباقوري على ألاَّ تضيع ثروته أوقفها وقفاً ذرياً[2] لا يباع ولا يقسم، ولكنَّ القدر وتراكم الديون عليهم اضطروا لحل الوقف الذري في زمن حسني الزعيم[3] سنة 1948م وقسمت الأراضي إلى أقسام قسم للوقف، وقسم للجيش، وقسم لأملاك الدولة، والباقي لأصحابه الذين باشروا ببيعه وتسديد الديون في سنة واحدة.

---

(1) بلدة صغيرة من قرى المرج بالغوطة. (ضرب الحوطة، ص: 157).

(2) الوقف الذرّي: وهو الوقف على الأحفاد أو الأقارب ومن بعدهم إلى الفقراء، ويسمى بالوقف الأهلي أيضاً، وأحياناً يكون الوقف على أبواب الخير ابتداءً ويسمى بالوقف الخيري.

(3) حسني الزعيم (1315 ـ 1368هـ): ابن الشيخ رضا بن محمد بن يوسف الزعيم من أهل دمشق، ومن القواد العسكريين، وكان رئيساً لسوريا سنة 1949م. (الأعلام: 2/ 228).

هـ - التنظيم العلمي:

لم يكن في حرستا خلال الحكم العثماني أية مدرسة معروفة، فاتخذ مسجد الشيخ موسى لتعليم الأولاد على أيدي بعض المشايخ، وأهل العلم رجالاً ونساءً.

فكان الحرستانيون في ذلك الوقت يرسلون أطفالهم إلى الكتاتيب لتعليمهم قراءة القرآن الكريم، وبهذا نشأ جيل من الحرستانيون في ذلك الوقت يقرأ بعضهم القرآن الكريم بفهم سطحي وثقافة ضحلة. أمَّا أغلب الناس فكانوا أميين.

ق - التنظيم الديني:

حاول بعض الولاة وبعض الشخصيات بشتى الوسائل إبعاد الحرستانيين عن سياسة الدولة العثمانية، ولا بد لذلك من بديل، فساهموا في نشر الطرق الصوفية وشجعوا المواطنين عليها إلى أبعد الحدود، فانتشرت في حرستا طرق (الرفاعية والشاذلية والقادرية والنقشبندية..)، وألهوا الناس بكثير من الخرافات والبدع الدينية لإلهاء الشعب وتخديره.

ل - الجباية والأموال:

أكثر الأتراك من أصناف الضرائب، وما كانوا في هذا المعنى أول أمرهم أقل ظلماً من المماليك في آخر أمرهم. وكانت الجبايات تجبى بالعسف والشدة، ولئن كانت الجبايات في آخر أيامهم مما يمكن احتماله، لكن طريقة جبايتها كانت شديدة على الأهالي.

وأكثر ما كان يؤذي الفلاح، طلب الأموال في غير الأوقات التي يستطيع فيها على الأداء وقبل جني محصوله. فالضرائب عبء ثقيل لا يطاق مع أنها أقلّ من قبل، وناهيك عن فقدان الأمن، وقلّة دخل الفلاحين وإهمال حراثة أراضيهم ففسدت أخلاق الناس، وكثر القتل والنهب، والغارة على الأموال والأعراض في كل مكان. وكثرت أنواع الضرائب في آخر أيام الحكم العثماني، وكان أكثر ما يُشكى منه ضريبة الأعشار على الحاصلات كلها، فاضطر الفلاحون إلى قطع أشجارهم تخلصاً من العشر[1].

---

(1) لأن الدولة العثمانية كانت تتقاضى الأعشار عنها أثمرت أم لم تُثمر، ولا تعتبر الآفات التي تصيب الأشجار، وقد جرَّبت الحكومة السورية سنة 1925م طريقة التربيع، فجمعت مقدار أعشار سنين قبل الحرب العالمية الأولى وسنين بعدها وأخذت ريعها وأنشأت تتقاضى بدلاً مقطوعاً وألغت بذلك الأعشار، فألغت بإلغائه نظاماً سيئاً من نظم القرون الوسطى، ثم رأت بعد العمل بذلك مدة ست عشرة سنة أنه لم يحقق العدالة=

1 ـ قال ابن طولون الصالحي الدمشقي: تولَّى الأمير إينال الجكمي نائب حلب وحضر إلى دمشق بعد قصروه نائب الشام يوم الخميس سابع عشر جمادى الأول سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، وقرأ تقليده القاضي نجم الدين يحيى بن المدني، فأقام في النيابة إلى أن مات الأشرف برسباي وتسلطن ولده العزيز يوسف، ثم لما خلف الأمير جقمق وتسلطن وتلقب بالظاهر شقَّ عليه ذلك وأنف الدخول في طاعته فعصى عليه، وخرج عن الطاعة وأمسك برسباي الحاجب الكبير بدمشق والمباشرين وبعض الأمراء فاعتقلهم بدار السعادة يوماً واحداً، ثم أفرج عنهم، وحضر القلعة بمن فيها، وأظهر الإنكار على السلطان جقمق في قتله قرقماش القتلة الشنيعة. ثم إنَّ السلطان جهَّز عسكراً لقتاله من مصر فوصل العسكر المذكور، فلما بلغ إينال الجكمي وصوله رحل من الميدان وتوجه إلى جهة العسكر فوصل إلى عذران[1]، فكانت الوقعة هناك وحصل بين المصريين وبين المذكور وقعة آلت إلى كسره، فهرب وقصد دمشق فوصل إلى الغوطة، ونزل بقرية حرستا الزيتون، فأعلم به نائب القلعة فجهز جاني بك دوادار برسباي الحاجب فوجده ببستان بقرية حرستا المذكورة، فأمسكه ومعه بعض أنفار من مماليكه وأحضره إلى القلعة، ثم دخل العسكر إلى دمشق، واعتقل على إينال الجكمي ببرج الخيَّالة بدمشق بالقلعة، ثم ورد مرسوم السلطان جقمق بقتله فقتل بالقلعة فتأسف الناس عليه[2].

2 ـ وجَّه الخنكار نائب القلعة ونقيبها ودوادار السلطان في أُناس عدّتهم ستة عشر نفساً، إلى مدينة استانبول، منفيّين مع جماعة من الأروام في الترسيم ففهم بعضهم من نائب القلعة أنه أرسل إلى أناس من التركمان ليخلِّصوهم، فجاء إلى الخنكار وأخبره

= المرجوة بحكم تكرر سني المحل التي لا تأتي بما يفي ببدل التربيع المذكور فعمدت إلى استيفاء ضريبة دعتها (الإنتاج الزراعي) كأن تأخذ سبعة في المئة من ثمن كل محصول يأتي به الفلاح للبيع في السوق، وهي أخف وطأة من ضريبة التربيع وإن لم تقطع الشكوى بالكلية. ولم تزل منطقة الإنتاج في حرستا تحمل هذا الإسم نسبةً إلى غرفة الإنتاج الموجودة على الطريق العام (السلطاني).

(1) لعله يقصد به بلدة عذرا.

(2) إعلام الورى بمن ولِّي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى. (ص: 70 ـ 71).

بذلك، فأرسل ذبحه وجماعة معه، بجنينة من ضواحي قرية حرستا خارج دمشق، ويقال إنَّ سبب ذلك مطالعة جاءت من العسكر المصري إليهم، ووجَّه بقيتهم إلى استانبول[1].

3 ـ في سنة 1508هـ قال الرحَّالة (أوليا جلبي)[2]: ثم سرنا إلى القبلة فوصلنا بعد مسير ست ساعات إلى قرية حرستا، وهي قرية عامرة فيها ثلاثمائة بيت، وكثير من الحداثق والكروم وجامع، وهنا خرج كل أعيان دمشق وكبرائها لملاقاة الباشا، يحملون إليه أنواع الهدايا من مأكول ومشروب وملبوس وغيرها كل بحسبه، وقد قَبِل الباشا كل ذلك منهم، وكان من جملتها مئة وخمسون فرساً من عتاق الخيل، تكرَّم حفظه الله ووزعها على أركان حاشيته، وفي اليوم الثاني جاءته جنود دمشق المؤلفة من الإنكشارية والقبوقول والسباهية واليرلية، تموج كالبحر الزاخر، وكلها غارق في الحديد والزرد، فوقفت للسلام على جانبي الطريق صفوفاً متراصة بعضها وراء بعض وكانت راياتهم المتموجة، ورماحهم المشرعة، وسيوفهم المشهرة، ودروعهم وخوذهم وتروسهم وبنادقهم ذات الفتائل تأخذ بالأبصار، وأمامهم أغواتهم وضباطهم وشواشهم بأزيائهم وعدَّتهم الفاخرة، واصطف مثلهم أمير الحاج سنان باشا بجنده وحشمه، واصطف أيضاً سادات دمشق، ووجهاءها وشرفاءها وعلماءها وراء كل منهم خدمه وحشمه، وجميعهم راكبون عتاق الخيول العربية المعروفة أحسابها وأنسابها وعليها أجود السروج واللجم والركب الدمشقية وأثمنها، ومتزينون بأفخر الحلل والأسلحة. ثم اعتلى الباشا حصاناً يرفل بأبهى الحلل، ولبس هو فرو من المخمل الفاخر، والسمور العالي المزين بالأزرار المرصعة، وسار تتقدمه أعلامه الخاصة به، وراءها تسعة من الجرد الجنائب، ملبسة أفخر السروج والغواشي المزركشة، يجرها سواس خاصون، بقيادة الآغا أمير الإصطبل، وهي تتهادى كالعرائس، وكان يواكب الباشا أربعمئة فارس، من رجال دائرته، كأمناء سرّه وموظفيه، وظل سائراً حتى وصل دمشق[3] وأهل حرستا خرجوا بأجمعهم ينظرون إلى هذا الموكب الكبير.

---

(1) إعلام الورى بمن ولِّي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى. (ص: 70 ـ 71).

(2) أوليا جلبي: هو محمد ظلي أفندي، أي الولي الفاضل، سائح تركي شهير (1020 ـ 1090هـ)، وهو قفقاسي الأصل، لكنه ولد وترعرع في استانبول، وضع في وصف رحلاته العديدة عشرة مجلدات. (جولة أثرية، أحمد وصفي زكريا: 11).

(3) جولة أثرية، أحمد وصفي زكريا (ص 25 ـ 29).

الفصل السابع
الفرنسيون والثورة السورية

تعتبر منطقة الغوطة معقلاً حصيناً من معاقل الطبيعة، من حيث طبيعة أرضها التي تلائم حروب الكمائن، وهي ذات خصب فيّاض يرويها بردى، والماء فيها محصور في مئات من أقنية السقاية، وهي عبارة عن أدغال عظيمة تكسوها الأشجار المثمرة المتشابكة الكثيفة، وتنفسح فيها الغياض، وتمتد الجدر والسياجات الكثيفة.

وسلاح الفرسان لا يستطيع الصول والجول في مثل تلك الأراضي التي تعيق الحركات الحربية وتعرقلها.

وقرية حرستا كانت من بلاد الغوطة التي كان لها نصيب من الاحتلال الفرنسي، وقد استمرت المعارك الطاحنة فيها أكثر من عامين، وانصبت عليها قذائف الطائرات والمدافع من عيارات مختلفة.

وأهل حرستا يزرعون ويفلحون تحت رحمة القذائف، وقد منيت هذه البلدة بفواجع ومصائب ونكبات لا توصف. فالمعارك التي وقعت على نهر ثورا كانت أشد المعارك هولاً، وتعرضت بصورة خاصة لقصف مدفعية القلاع الحربية مدة ثلاثة أيام. وقد اشترك من حرستا الكثير من أبناءها في الجهاد ضد هذا المستعمر الغاصب. ومن أهم أعمال المجاهدين التي قاموا بها مهاجمة مخفر النشابية، إذ حرقوه ودمّروا الخطوط الهاتفية، ونجا من فرَّ من رجال الدرك إلى دومة واستولى المجاهدون على السلاح.

معركة جسر ثورا:

كانت الوقائع الحربية بين المجاهدين والجيوش الفرنسية تتوالى يوم وآخر، وكان كلما قام الجيش بإصلاح جسر ثورا خرّبه الثوار لقطع المواصلات عن حامياتهم الحربية المرابطة في دومة وحرستا، وقد وقعت في أراضي جسر ثورا أشد المعارك عنفاً وضراوة.

ففي العاشر من شهر تشرين الأول سنة 1925م زحفت حملة فرنسية إلى جسر ثورا لبنائه ليتسنى للدبابات والمصفحات والمعدات الحربية اجتيازه بسهولة، فخفَّ المجاهدون

لأراضي جوبر، وقاموا بتنظيم خط الدفاع، وتوزيع القوات فيه ولكن الحملة لم تخرج في ذلك النهار.

وفي ذلك اليوم شاهد المجاهدون رجلاً يقود دابة يحمل عليها بضاعة للبيع، وكان الثوار قد علموا أن هذا البائع جاسوس مرسل من قبل الفرنسيين، ولما استجوب أفاد بأنه فقير وربّ عائلة يعيش من بيع بضاعته، فرقّت قلوب المجاهدين إليه وأعادوه إلى دمشق، وراقبته العيون داخل مدينة دمشق فشوهد مع الفرنسيين وقد أبلغهم عن مواقع المجاهدين، فبدأت المدفعية الفرنسية تصب قنابلها على خط المجاهدين، فكانت القذائف تقع على مقربة منهم فاضطروا للانسحاب، وتركوا خط جوبر الدفاعي خالياً.

وفي 13 تشرين الأول سنة 1925م زحفت الحملة الفرنسية، وقبل وصولها إلى جسر ثورا بمسافة نصف كيلومتر تعرَّض المجاهدون لها وساهمت المدفعية الفرنسية بمؤازرة الحملة فكانت الأشجار تتساقط من تأثير القنابل ودامت المعركة في شدة وعنف حتى المساء.

وفي 17 تشرين الأول سنة 1925م وصلت حملة فرنسية إلى قرية (الريحان)[1] لمطاردة أحد ثوار بلدة حرستا في قرية حوش المباركة، فسار فريق من المجاهدين والتقوا بالحملة وهاجموها واشتركوا معها في قتال عنيف.

معركة طريق دومة حرستا:

وقعت هذه المعركة في 16 تشرين الثاني سنة 1925م، وقد خرجت حملة عسكرية من دمشق إلى بلدة دومة، فكمن لها الثوار بطريق بين حرستا ودومة وأودعوا خيولهم بوادٍ يقع بأراضي حرستا ومرَّت الحملة فأطلقوا النيران عليها فارتدت إلى حرستا، فلحق الثوار بالحملة مساءً، وفي الليل هاجمها المجاهدون على حين غرة ودار القتال حتى منتصف الليل وأسفرت النتيجة عن انسحاب الجند، وبقيت الدبابات والمصفحات تحمي القتلى. وفي الصباح قامت السيارات بنقل القتلى وكان عددهم زهاء (150) ما بين قتيل وجريح.

---

(1) الرَّيحانُ: قرية في غوطة دمشق، تقع شرقي بلدة دومة.

مناوشات جسر ثورا:

في يوم الجمعة الواقع 18 كانون الأول سنة 1925م بدأ الجند الفرنسي بقطع الأشجار الكثيفة في حرستا التي يحتمي وراءها الثوار، فقامت مناوشات حتى وصلت نجدة المجاهدين في قرية عربيل فاشتركوا معهم، فارتد الجند دون أن يتمكنوا من تنفيذ مهمتهم سوى قطع بضع شجرات من المشمش.

الوقعة الثانية في الطريق بين حرستا ودومة:

وقعت هذه المعركة يوم الثلاثاء 5 كانون الثاني سنة 1926م، حيث طوَّق المجاهدون الحامية الفرنسية المرابطة على الطريق العام (السلطاني)، وقطعوا عنها المواصلات والمؤن، فاضطر الفرنسيون لتجهيز حملة كبرى تزيد عن عشرة آلاف جندي لفك الحصار عن أفراد هذه الحامية المؤلفة من مئة جندي من المتطوعة والفرنسيين بقيادة مستشار فرنسي وبعض الضباط وخرجت الحملة من دمشق تحميها سرايا كبيرة من سلاح الدبابات والمصفحات التي كانت تواكبها وتسير أمامها ومن خلفها.

وقامت مدفعية القلاع والحصون في ضواحي دمشق بقذف عنيف متواصل على أماكن الثوار، تمهيداً لسير الحملة من دمشق إلى جسر ثورا لإصلاحه، وتأميناً للعبور والوصول إلى المنطقة العسكرية المحصورة خارج بلدة دومة، وكانت لا تستطيع التخطي والتجول خارج نطاق مركزها، وقد انقطعت عنها الإمدادات من السلاح والمؤن، فكانت الطائرات تزودها بالأغذية واستمر حصارها مدة ستة أشهر.

وفي يوم 5 كانون الثاني سنة 1926م زحفت الحملة الفرنسية من دمشق وبدأت بإصلاح جسر ثورا، واستمرت المدفعية تطلق قنابلها على الأماكن المجاورة لهذا الجسر خوفاً من هجمات المجاهدين على وحداتها المنتشرة، وقد مرَّت الحملة واجتاز سلاح الدبابات والمصفحات جسر ثورا وسارت على الطريق العام وتوجهت إلى دومة. وعند وصول الحملة أمام خط الدفاع الجديد المجهَّز بالمجاهدين، اشتبك الفريقان، واستعرت نيران الحرب فاستمرت المعركة أربع ساعات وقد تكبّد المجاهدون خسائر كبيرة، فآثروا الإنسحاب السريع إلى أرض البواب التابعة لأراضي حرستا وأدركوا مقدمة الحملة مقابل هذه

الأرض، ودام إطلاق النار عليها مدة ساعتين ثم حلّقت أسراب الطائرات وألقت قذائفها على المجاهدين للحيلولة دون هجومهم على الجنود السائرين في الطريق العام، فانسحب الثوار تحت ضغط قنابل الطائرات، وتابعت الحملة سيرها إلى أن وصلت إلى دومة، وفكّت الحصار عن حاميتها وبقيت ثلاثة أيام وأهل دومة يلقون منها أنواع العذاب والتنكيل. وعند وصول الحملة لمنتصف الطريق ما بين حرستا والقابون انقضّ المجاهدون عليها وفككوا أوصالها، وانتشر بين صفوفها الذعر والفوضى، وتمكن خلالها المقبوض عليهم من الفرار والإلتحاق بالمجاهدين، وعلموا منهم ما ارتكبه الجيش في دومة من الفظائع الوحشية ضد الأهالي.

وفي يوم الجمعة 15 كانون الثاني سنة 1926م خرجت حملة فرنسية من دمشق وسلكت طريق باب شرقي، وكانت خطتها التجول في غوطة دمشق بقصد كشف مراكز المجاهدين، فتجمع المجاهدون من ثوار دومة وحرستا والقابون وبرزة وحمورية بأرض الزور. وفي هذه الفترة تم التعارف بين مجاهدي الشمال والجنوب، وتحصّنوا بأطراف الطريق العام، وقبل وصول الحملة تعرّض لها المجاهدون وبدأوا بصب نيرانهم على هذه الحملة من جميع أطرافها فساد الاضطراب في صفوفها واستمرت هذه المعركة مدة خمس ساعات فارتدت الحملة على إثرها إلى دمشق تحمي الدبابات والمصفّحات مؤخرتها وقد أُصيبت بخسائر فادحة، وعاد المجاهدون إلى مراكزهم.

معركة داريًا الصغرى بأرض حرستا:

وقعت هذه المعركة يوم الاثنين في 25 كانون الثاني سنة 1926م بأرض داريا الصغرى التابعة لبلدة حرستا، وقد اشترك فيها الكثير من أبناء حرستا وقد بلغ عدد المجاهدين في هذه المعركة (600) مقاتلاً، وكانوا قد استحكموا وراء أشجار الزيتون الموجودة مقابل الطريق العام (السلطاني) الواصل بين بلدتي دومة وحرستا واشتبكوا في معركة دامية استمرت أكثر من خمس ساعات، وأسفرت عن وقوع قتلى وجرحى من الحملة العسكرية، وخرج المجاهدون منها دون أية خسارة، وقد غنموا من العدو أربعة بغال محمّلة ثمانية صناديق من الذخائر.

معركة البوَّاب الأولى في حرستا:

وقعت هذه المعركة في 10 شباط سنة 1926م بأراضي بلدة حرستا بموقع البواب وقد اجتمع المجاهدون على بيادر قرية (مديرة)[1]، ثم ساروا مع طلوع الفجر إلى الطريق العام في موقع البواب. اشترك في هذه المعركة ثوار بلدة حرستا، وقد وصلت الحملة العسكرية الفرنسية عند طلوع الشمس، فتصدَّى لها المجاهدون، وكانت معركة حامية الوطيس دامت إلى منتصف النهار، وقد استبسل المجاهدون بالدفاع، فما استطاعت الحملة من السير نحو دومة، وعادت على أعقابها إلى دمشق، وغنم المجاهدون صناديق كثيرة من الذخائر تركها الفرنسيون عند انسحابهم، وكانت دماء القتلى والجرحى ظاهرة على الطريق العام، ممَّا دلَّ على وقوع خسائر في قوات الإحتلال. وفي هذا اليوم أيضاً قامت حملة فرنسية مؤلفة من خمسة آلاف جندي وقد تمركزت في أراضي دومة وحرستا، وفي البيادر حول النقطة الفرنسية المرابطة، وكانت الدبابات والمصفحات ترابط على طول الطريق العام. عندها قام المجاهدون بتنظيم خطوط الدفاع. وفي اليوم الثاني ارتدَّ المجاهدون وأغاروا على هذه الحملة، واشتدَّ القتال بين الفريقين إلى وقت الغروب، واستشهد المجاهد الحرستاني علي الحلاق (زنبوعة).

اجتماع المجاهدين:

في يوم الخميس 18 شباط 1926م، اجتمع المجاهدون من جميع الطبقات وتداولوا في أمر الحملات الفرنسية التي توالى إرسالها على طريق حرستا ودومة فقرَّروا ما يلي:

1 ـ إحداث خط دفاعي بأراضي جوبر يمتد على طول طريق جسر ثورا.

2 ـ هدم جسر ثورا لتعطيل سير الدبابات والمصفحات. وقد تمَّ هدم هذا الجسر الذي كانت حراسته منوطة بمجاهدي دومة ورابط (50) مسلحاً لحراسته بصورة دائمة بقيادة أحد مجاهدي دومة أيضاً، وإثر هدم هذا الجسر انحصر الفرنسيون بدمشق زهاء نصف عام، فكانوا كلما جهزوا حملة لخرق هذا الخط ناوشهم الحراس ريثما تأتيهم النجدات من مراكز دومة وحرستا وحمورية وكفر بطنا، وفيهم ثوار حي العمارة

---

(1) قرية شرقي حرستا وهي من صميم الغوطة، وجنوب بلدة دومة، وشربها من نهر ثورا.

بدمشق. وفي 25 شباط سنة 1926م اجتمع رؤوساء المجاهدين وبدأوا في تنظيم شؤون الثورة وإنشاء مجلس وطني، وتقسيم الثورة إلى مناطق، وبعد المداولة في الأمر استقر الرأي على ما يلي:

1 ـ أن يؤلف من مجموع المجاهدين في الغوطة وضواحي دمشق وحدة تامة توزع على المناطق الحربية بحسب الضرورة وأحوال المنطقة.

2 ـ أن يشكل مجلس عام باسم (المجلس الوطني للثورة السورية في الغوطة وضواحي دمشق)، ينتخب أعضاءه من قبل رؤوساء الثوار بتفويض خطّي.

3 ـ أن تقوم كل جماعة بالحركات الحربية في منطقتها برأي مستشارها العسكري. أما الحركات العامة فتكون بقرار من المجلس الوطني.

4 ـ أن تخصص كل جماعة مفرزة من رجالها لتوطيد الأمن في منطقتها وتأمين المواصلات مع المناطق المجاورة لها.

5 ـ أن يحمل رجال كل جماعة شارة خاصة بهم تميزهم عن سواهم، ولا يجوز لأي مجاهد كان أن يترك جماعته التي سجَّل فيها ويلتحق بغيرها.

6 ـ أن يحال كل جاسوس يُقبض عليه في إحدى المناطق إلى المجلس الوطني بعد أن يضبط زعيم تلك المنطقة إفادته الأولية، لينظر في إصدار الحكم النهائي بحقه.

7 ـ أن يلاحق المجلس الوطني للثورة الأشخاص الذين يعتدون على الأهالي ويدعون أنهم من الثوار لمعاقبتهم وطردهم من صفوف المجاهدين.

معركة جسر ثورا:

استمرت المعارك تتوالى بين حين وآخر في جسر ثورا، فقد قامت حملة فرنسية صباح يوم الاثنين في 28 شباط 1926م من دمشق، وكان المجاهدون ينتظرون الأحداث، وقد انتشروا بمراكز دومة وباقي قرى الغوطة، وقامت حملة عسكرية فرنسية لإصلاح جسر ثورا، وهو الطريق الوحيد باتجاه دومة وحرستا، عندها توالت قوات المجاهدون واجتمعت في أراضي جوبر، وقد كمن المجاهدون حتى إذا ما ظهرت طلائع الحملة ومعها المعدات لإصلاح جسر ثورا قابلتها بنيران حامية، واستمر الدفاع ثلاث ساعات لم تتمكن الحملة من تطبيق الجسر، وارتدت خائبة إلى دمشق وتقدم المجاهدون فهدموا ما أصلحته الحملة من الجسر.

معركة حرستا - عربيل:

وقعت هذه المعركة بأراضي بلدة حرستا شرقي الطريق العام يوم الأربعاء في 3 آذار سنة 1926م، اشترك فيها أكثر من سبعمائة مسلَّح.

وفي هذا اليوم أيضاً خرجت الحملة الفرنسية من دمشق، وكانت تتألف من اللواء الأول من فيلق الرماة الإفريقيين الحادي والعشرين تواكبه من متطوعي الشركس، فوصلت إلى موقع المعركة في الساعة السابعة صباحاً، وهي مزودة بأكمل المعدات الحربية، مع سرية من الدبابات والمصفحات وقافلة سيارات تحمل المؤن والذخائر الحربية. ولمَّا وصلت هذه القوات إلى حرستا، كان المجاهدون كامنين وراء نهر ثورا مقابل الطريق العام، على طول النهر الذي يجري على مسافة أربعمائة متر بمحازاة الطريق من ناحيتها الجنوبية الشرقية، وقد تربَّص المجاهدون في الهجوم عند مرور متطوعي الشركس والدبابات حتى إذا ما اقتربت القوات المذكورة إلى حرستا هاجمها المجاهدون بعنف ودام القتال زهاء سبع ساعات، وقد دفع اللواء الأول الفرنسي الهجوم بشدة، وآزره مدفع من عيار (75) مع المدافع القصيرة الخاصة بقذف القنابل المعروفة لدى الثوار بقنابل (السَّلبند)، وقد رجعت سرية الدبابات عن حرستا على أعقابها، وأنقذت القوات الفرنسية وتمكنت القافلة الفرنسية من المرور والمعركة على أشدِّها في الجنوب الشرقي من الطريق العام. ثم توقف المجاهدون عن القتال ما وراء حرستا، غير أن جماعات أخرى برزت من القابون وشدَّت بهجومها على المؤخرة بعنف في جنوبي البلدة، واستطاعت المؤخرة الإفلات من هجوم المجاهدين وفتكهم بعد أن تدخلت الدبابات بالمعركة. وعند الظهر وصل الجيش الفرنسي إلى دومة، فترك فيها قافلة السيارات وغادرها إلى دمشق.

الخسائر:

لقد منيت الحملة الفرنسية بخسائر جسيمة، فكانت السيارات تنقل الجرحى والقتلى وعددهم مجهول، واستشهد في هذه المعركة سبعة من المجاهدين وأكثرهم من أهل دومة الذين أبلوا في هذه المعركة أحسن البلاء فكتبت لهم الشهادة والخلود.

معركة حرستا في 5 آذار سنة 1926م:

ترك الجيش الفرنسي دومة عائداً إلى دمشق، فانطلق سلاح الفرسان الشركسي والسيارات الرشاشة إلى الأمام فاحتلوا حرستا، وهاجم المجاهدون حرس الميسرة من اللواء الأول من فيلق الرماة الإفريقيين (21) على مسافة نصف ميل من قرية حرستا شرقاً، فشدَّت أزره سرية الرشاشات المقبلة من دمشق، ثم واكبت الجيش حتى دمشق زاحفة على الضفة الغربية الجنوبية من نهر ثورا. وكان المجاهدون ما زالوا مرابطين ما وراء حرستا في نفس المواقع التي اشتبك الجيش معهم يوم 3 آذار سنة 1926م ودارت المعركة فنازل الثوار حرس الميسرة تسانده الدبابات، وقد أوقف المجاهدون الحملة الفرنسية، ولم تستطع التقدم إلاَّ بعد قتال عنيف مستمر، وحميت نار القتال، فقام معاون القائد الخيَّال مع قوة شركسية بمهاجمة طاحونة على نهر ثورا كان المجاهدون قد كمنوا فيها، واستعمل القنابل اليدوية فاستشهد عشرة أبطال، ورجع الجيش في عصر ذلك اليوم بعد أن اشتبك بمعارك طاحنة. وذكر البلاغ الرسمي أن المجاهدين خسروا (156 قتيلاً)، و(103) جريحاً. أما خسائر الفرنسيين فكانت أربعة قتلى و(37) جريحاً. والحقيقة أنها عشرة أضعاف ذلك.

معركة جسر ثورا في 26 نيسان 1926م:

وقعت هذه المعركة في جسر ثورا الذي هو أحد الطرق المهمة المؤدية إلى الغوطة، وكان المخلصون يؤمنون إيصال أخبار تنقلات الحملات الفرنسية إلى المجاهدين بشتى الوسائل وقد بعث حراس خط الدفاع في بلدة جوبر يطلبون النجدة لصد الحملة الفرنسية فلبي نداء الجهاد جماعات دمشق ودومة وحرستا وجميع قرى الغوطة، واجتمع القادة والرؤوساء لتنظيم خطة الدفاع لمنع سير هذه الحملة، ولكن الحملة الفرنسية لم تخرج من دمشق في ذلك النهار، فرابط المجاهدون في هذا الخط ووضعوا / 21/ لغماً كلفت نفقاتها / 25/ ليرة ذهبية آنذاك. وكانت المواد المتفجِّرة تؤخذ من قذائف الطائرات التي لم تنفجر، فقرر الثوار وضع هذه الألغام بمفرق القابون على الطريق العام، بينها وبين بلدة حرستا، وكان في كل عشرين متراً يوضع لغماً، وربطت الألغام بأسلاك خاصة وحفر لها حفائر خاصة بها، وطمرت تحت سطح الأرض إلى أن ظهر آخرها بخط المجاهدين على طول نهر ثورا.

وفي اليوم الثاني تحركت الحملة العسكرية يتقدمها لواء سلاح الفرسان، وكان عددها يزيد عن ثمانية آلاف جندي، وحين وصولها إلى جسر ثورا نصبوا عليه الأخشاب للمرور، وكان الثوار ينظرون بأعينهم وهم يجتازون الجسر دون حراك كي تصل الحملة إلى المكان المبثوثة فيه الألغام، وعندها صارت في الموقع الملائم، أعطيت الإشارة بتفجيرها فقطعت الأسلاك، ولم ينفجر منها سوى اللغم الأول بأواخر الحملة، فبعثر أربعة بغال محملة ذخائر مع عشرة جنود. وكان المجاهدون يضربون مؤخرة الحملة، والدبابات تحافظها فلم يتعرقل سيرها، بل وصلت إلى منطقة بين دومة وحرستا على الطريق العام، وعززت هذه الحامية بالجنود والذخائر، ثم ارتدت مساءً إلى دمشق.

وفي اليوم الثالث اجتمع المجاهدون وهدموا ما قام الجيش الفرنسي بإصلاحه في جسر نهر ثورا، وعززوا حراس هذا الخط بقوة ثانية لمجابهة الحملات القادمة، وانقضَّ المجاهدون وعادوا إلى مراكزهم المحددة لهم.

وفي يوم الأربعاء 26 نيسان سنة 1926م توافدت النجدات السريعة لصد الحملة التي خرجت من دمشق وبلغ مجموع المجاهدين (400) مسلحاً تتألف من ثوار دومة وحرستا والقابون وحمورية[1] ومديرة والمزة وزبدين[2] والمليحة[3] وعربيل وعين ترما[4] وزملكا[5] والميدان[6] والشاغور[7]. وقد وصل هذا العدد الضخم من المجاهدين إلى خط دفاع جوبر. وفي الصباح زحفت الحملة الفرنسية من دمشق تحمي مقدمتها ومؤخرتها الدبابات والمصفحات، وعند وصولها إلى الطريق العام أمام خط المجاهدين انصبَّت النيران عليها،

---

(1) حمورية: قرية في الغوطة تبعد عن دمشق 5.6كم وتسقى من نهر الداعياني، كانت تشتهر بزراعة القنب.

(2) زبدين: قرية في صميم الغوطة، كانت مختبئة بين الأشجار الكثيفة، وتشرب من نهر ثورا وأهم محاصيلها المشمش.

(3) المليحة: وأساس الاسم المنيحةُ، من قرى دمشق بالغوطة. (معجم البلدان: 5/ 217).

(4) عين ترما: قرية قريبة إلى دمشق، تكاد تكون من ضواحيها، تبعد عنها 2كم. وأساس الاسم عين تُرْماء. (معجم البلدان: 4/ 177)، (الريف السوري: 4/ 115).

(5) زَمَلْكَا: قرية بغوطة دمشق، منها الشيخ أبو الأزهر الزَّملكاني الدمشقي شيخ أبي بكر المقري، بينها وبين دمشق 5.3كم وكان التراموای يمر بها. (معجم البلدان: 3/ 150)، (الريف السوري: 2/ 113).

(6) و (7) من أحياء دمشق.

فأجابت بنيرانها الحامية وعززت مواقعها المدافع المنصوبة في الباب الشرقي، وكانت الأشجار الكثيفة من بعض القرى تتحطم وتنهار متناثرة من شدة القصف، وقد شعر المجاهدون بشدة الوطأة العنيفة عليهم في هذه المعركة الرهيبة، فلم تضعف عزائمهم وفضَّلوا الموت كراماً، ودام الإشتباك العنيف طوال النهار، وكلما اشتدت المعركة تقدم المجاهدون إلى أمام الطريق العام حتى تمكن ثوار دومة وحرستا وجوبر من الوصول إلى جسر ثورا وجابهوا مقدمة الحملة بقتال عنيف، فعرقلوا سيرها وارتدت الحملة قبل غروب الشمس إلى دمشق.

وفي يوم الخميس 10 حزيران سنة 1926م خرجت حملة فرنسية وقَصْدها دخول قرى الغوطة وتعقيب المجاهدين التي كانت تُعبِّر عنهم بعصابة الأشقياء، واشترك عدد كبير من ثوار حرستا ودومة.

معركة البواب الثانية في حرستا:

وقعت هذه المعركة يوم الاثنين في 21 حزيران سنة 1926م، وكان المجاهدون يتجولون في أراضي الغوطة ويراقبون بعين يقظة أخبار الحملات تفادياً من مداهمتها. وعند الصباح فوجئوا بحملة مجهزة تسير في الطريق العام، فهاجمها المجاهدون بأرض حرستا في منطقة البواب مدة نصف نهار، وكانت السيارات تنقل الذخائر والمعدات لتجهيز الحملة المرابطة في أرض دومة، وقد نفذت ذخيرة الثوار فانسحبوا سالمين مع بعض الجرحى لإسعافهم وسارت الحملة إلى مراكز المرابطين بأرض دومة، فباتت ليلة وعادت في اليوم الثاني قاصدة دمشق وعند وصولها إلى القابون، كان المجاهدون قد استعدوا لها فداهموها مرة ثانية في ضفة نهر ثورا، وتلقاها المجاهدون الذين كانوا يرابطون في شمالي الطريق بين قرى القابون وبرزة والتل، وأصبحت الحملة بين نارين من جنوب الطريق وشماله، فأوقع المجاهدون فيها خسائر فادحة، وأرغمها الثوار على السير السريع حتى وصلت دمشق حاملة قتلاها وجرحاها، ثم اتفق المجاهدون على مداهمة الحملات على هذه الصورة المستحكمة من الجنوب والشمال لمنع سيرها وبعد اندحار الحملة عاد الثوار إلى مراكزهم.

وفي يوم الثلاثاء 22 حزيران سنة 1926م، ظلَّ المجاهدون في الغوطة يحرسون أرضها ليلاً ونهاراً، وقد قام مجاهدو حرستا ودومة يحرسون أراضيهم من طوارئ

الحملات المتجولة، وكانت كل فرقة تعمل للدفاع عن منطقتها، وإذا استنجدت إحداهما زحفت الأخرى لنصرتها. وبعد ردِّ الحملة الفرنسية إلى دمشق عادت فخرجت منها ليلاً بعد ثلاثة أيام واشتبكت مع مجاهدي دومة وحرستا وجوبر تحت جنح الظلام، واستمر إطلاق النار بين الأشجار بشدة عظيمة حتى مطلع الفجر.

وكان الجواسيس يركبون في الدبابات والمصفحات لإرشاد الحملة وإعطاء المعلومات عن مراكز الثوار وعدد قواتهم، وقد جابه المجاهدون الحملة بدفاع مستميت وصدمة هائلة طوال الليل، فارتدت عند الصباح إلى دمشق وفكَّر الفرنسيون بعد ذلك بتطويق الغوطة من جميع نواحيها، وباشرت بسحب قواتها من أنحاء البلاد لتطبيق هذه الخطة.

وفي 5 آب سنة 1926م عند وصول المجاهدون إلى أرض حرستا أمام الطريق العام، قابلوا مجموعة من الجنود الفرنسيين تسير في الطريق، وقد أتت لإنقاذ بعض الجواسيس من قبضة الثوار، فأطلق المجاهدون النار عليها فارتدت هاربة والتحقت بالقوة العسكرية التي كانت ترابط في بيدر حرستا وقُتل من أفرادها خمسة على الطريق العام، وغنم المجاهدون خيولهم وأسلحتهم وبعد ذلك توجَّه المجاهدون إلى مراكزهم.

موجة الوهن والاستسلام:

وهي فترة عصيبة لكثرة عدد الجواسيس فيها، وانتشارهم بين صفوف المجاهدين إذ نشطوا في بث الدعايات وإحباط الهمم، ولمجابهة هذه الحملات قرَّر المجاهدون أن يجابه كل فريق منهم الحملة العسكرية الزاحفة إلى منطقته.

ولمَّا خرجت الحملة من دمشق للزحف على دومة، قرَّر المجاهدون مقابلتها بأرض البواب التابعة لبلدة حرستا قبل دخولها دومة، فساروا تلك الليلة ورابطوا بأرض البواب، وكان عددهم يزيد عن ألف مسلَّح.

وقام مجاهدو حرستا يرافقهم عشرون فارساً بالتوجه إلى أرض جوبر للاستكشاف ومعرفة قوة هذه الحملة، ولكن الثوار انسحبوا نحو منطقة الزور تاركين هذه الحملة وشأنها، وكان هذا الإنسحاب من أكبر العوامل التي أثرت على وضع الثوار الراهن في تلك الأيام، وغدت بداية الوهن والتخاذل بين صفوف المجاهدين.

وفي خلال ثلاثة أيام تجمَّع المجاهدون من جميع أنحاء الغوطة وغيرها، فبلغ عددهم (500) مسلحاً بدلاً من ألف ثائر الذين قد حضروا لأرض البواب في حرستا.

معركة طريق حرستا ـ دومة:

وقعت هذه المعركة يوم الجمعة في 27 آب سنة 1926م، عندها أتم المجاهدون ترتيباتهم الحربية بانتظار العدو، وقطعوا الطريق بين حرستا ودومة. وقبل وصول الثوار إلى قرية مديرة، داهمتهم الحملة الفرنسية القادمة من حرستا، وكانت من المشاة. وأما الحملة القادمة من دومة فكانت من سلاح الفرسان. ولمَّا زحفت قوى دومة كانت المدرعات تتقدم نحو قرية مديرة، وكانت ثوار حرستا تهاجم مركز العاص بين مديرة وطريق حرستا ودومة، وكانت أوضاع المجاهدين بمواقعهم حرجة، فالدبابات وصلت مديرة بجانب المقبرة، وكانت قوات الإحتلال القادمة من حرستا هدفها تطويق المجاهدين من خلفهم. وفي هذه الفترة كادت قوات العدو أن تصل إلى مرابط الخيل وتستولي عليها لولا النجدة التي جاءت من الثوار المرابطين خلف هذه الحملة، فكان لهذه النجدة أعظم الأثر، إذ أفسدت شدة هجوم العدو واضطرت قوات دومة وحرستا للانسحاب، ثم اشتبك المجاهدون مع العدو من جهة قرية مسرابا ـ دومة، وانسحب العدو إلى دومة وعاد المجاهدون إلى مراكزهم.

حرستا أيام الثورة:

في حرستا الكثير من الأنهار التي تكسوها الأشجار، فليس بمقدور أي كان التوغل فيها أو تسريح النظر إلى أبعد من خطوات قليلة. وطبيعة هذه الأرض لا تتلاءم مع حركات الجيش الفرنسي النظامي. وكان سكان حرستا يؤازرون المجاهدين، ويخرجون معهم لخوض المعارك، فكانت البلدة معقلاً للثوار لمقاومة الفرنسيين بلا انقطاع سنة كاملة بصرف النظر عمَّا تخلَّلتها من الفترات التي اقتضتها أسباب حربية وسياسية في بداية فصل الشتاء سنة 1926م وقد قطعوا الطرق الهامة، وجعلوها في حالة يتعذر معها مرور القوافل الحربية، وخرَّبوا الجسور، وطمروا الألغام المضادة للدبابات في مهاوي الأرض ومنعرجاتها، وكانت أسباب المعيشة متوفرة في أماكنها، غير أن الأوضاع تبدلت بعد

حركات التطويق، حيث هاجر أهل حرستا إلى الصالحية وحي المهاجرين بدمشق بعد أن وضعوا عنابر (كناديج) القمح بالجدران وغطّوها بطبقة من الطين كي لاتكشف فتسرق. ولمّا انتهت الثورة عاد الأهالي إلى حرستا فلم يجدوا من الأمتعة والمؤونة شيئاً فأصيبت حرستا يومئذ بمجاعة شديدة.

وفي عام 1957م زار حرستا رئيس سورية شكري القوتلي بمناسبة يوم الإحصاء فاجتمع الحرستانيون أمام مدرسة حرستا الريفية يهرعون لاستقباله.

obeikandl.com